جامعة ديالى

كلية التربية الاساسية

قسم اللغة العربية

مقالة بعنوان

الادب ، مفهومه عبر العصور

إعداد

أ.د اسماء كاظم فندي

الادب ، مفهومه عبر العصور

يجدر بنا ان نلم ولو بشيء من الايجاز على ما طرأ من تغيير على كلمة "ادب" تلك الكلمة التي تطور معناها بتطور حياة العرب ، وانتقالهم من دور البداوة الى ادوار المدنية والحضارة . ذلك التطور الذي اوجد بطبيعته اكثر من معنى لكلمة ادب .

وقد يصعب على الباحثين ان يجدوا السبيل الى تحديد الوقت الذي نشأت فيه الكلمة بنصها أو بمادتها في اللسان العربي ، غير انه يظن من اقدم الكلام الذي وردت فيه هذه الكلمة بنصها وبمادتها قول عتبة بن ربيعة لابنته هند يصف لها خاطبها – ابا سفيان ولم يذكر اسمه : " يُؤدِّب اهله ولا يؤدبونه" وردها عليه : " واني لآخذه بأدب البعل ، مع لزوم قبّتي وقلة تلفّتي".

وقد دلت كلمة الادب في عصر ما قبل الاسلام على الدعاء الى المأدبة . فالادب هو الداعي الى المآدِبْ . وقد ورد هذا المعنى على لسان بعض شعراء ذلك العصر ، ومنهم طرفة بن العبد في قوله :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدِب فينا ينتقر

ويعلق طه حسين على كلمة الادب فيذكر ان لأستاذه (نلينو) رأياً في اشتقاق هذه الكلمة ، فيقول انها مشتقة من "الدأب" بمعنى العادة . وان هذه الكلمة جمعت على "ادآب" ثم قلبت فقيل "آداب" كما جمعت "بئر" و"رئم" و على "أبآر" و "أرآم" ثم قلبت فقيل "آبار" و"آرام" ثم رجعوا الى مفردات هذه الكلمات فقالوا ادباً ،وبئراً، ورئماً . وظاهر الرأي ان رأي الاستاذ "نلينو" كرأي غيره من اصحاب اللغة يعتمد في اصله على الفرض فليس لدينا من النصوص أو القرائن العلمية الواضحة ما يبين ان لفظ "الادب" قد اشتق من "الآدب" بمعنى الدعوة الى الولائم ، أو قد اشتق من الأدآب "جمع دأب".

واستخدمت الكلمة في عصر صدر الاسلام بمعنى التهذيب والتحلي بالاخلاق الكريمة ، على ما جاء في قول الرسول " أدبني ربي فأحسن تأديبي" وفي قوله "ان هذا القرآن مأدبة الله في الارض" والمأدبة هنا اسم مكان من الادب على التشبيه ، فالقرآن يجمع الاداب التي يدعو الله تعالى عباده اليها من خلق كريم وحكم صالحة ومواعظ نافعة ، من كل ما يتصل بمعنى التهذيب النفسي . وقول سيدنا عمر لابنه " يابني انسب نفسك تصل رحمك ، واحفظ محاسن الشعر يحسن ادبك" وقول الامام علي " وادبتكم بسوطي فلم تستقيموا ، وحدوتكم بالزواجر فلم تستوسقوا".

وشاعت كلمة الادب في العصر الاموي ، واطلقت على التعليم ، اذ ظهرت في هذا العصر طائفة سميت (المؤدبين) ، وهم الذين كانوا يتولون تعليم اولاد الخاصة ، وتنشئتهم تنشئة تليق بالطبقة الحاكمة . وكان عماد تعليمهم يقوم اساساً على اشعار العرب واخبارها وانسابها . ومن ذلك قول معاوية "اجعلوا الشعر اكبر همكم ، واكثر آدابكم ، فان فيه مآثر اسلافكم ، ومواضع ارشادكم "وقول عبد الملك بن مروان لمعلم ولده : "ادبهم برواية شعر الاعشى ، فانه – قاتله الله – ما كان اعذب بحره ، واصلب صخره " وشهد هذا العصر كتباً تنم عنواناتها على هذا المعنى مثل الادب الصغير والادب الكبير لابن المقفع .

وفي اواخر العصر الاموي واوائل العصر العباسي الاول أو في القرنين الثاني والثالث الهجريين نشأت علوم اللغة العربية ، وتميزت بموضوعاتها واسمائها ، فكان النحو والصرف واللغة . واتسع نطاق كلمة ادب فشملت الشعر والنثر ، وما يتصل بهما من شرح واخبار وانساب ومسائل من النحو والصرف واللغة والنقد . والفت كتب بهذا المعنى مثل طبقات الشعراء لابن سلام المتوفى (٢٣٢هـ) ، والبيان والتبيين للجاحظ المتوفى (٢٥٥هـ) ، والكامل للمبرد المتوفى (٢٨٥هـ) ، اذ انهم فهموا الادب على انه ثقافة عربية لغوية جامعة .

وازداد معنى الادب اتساعاً حتى شمل الرياضة والغناء والاناقة في اللباس ، واللياقة في الحديث والكلام . يقول "التبريزي" في شرح الحماسة "وكان الادب اسماً لما يفعله الانسان فيتزين به في الناس .

ومما يدل على اتساع معنى الادب وشموله لكل المعارف ما جاء على لسان الوزير الحسن بن سهل (ت٢٣٦هـ) "الآداب عشرة : ثلاثة شهرجانية ، وثلاثة انوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة اربت عليهن ، فاما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج . واما الانوشروانية فالطب والهندسة والفروسية . واما العربية فالشعر والنسب وايام الناس . واما الواحدة التي اربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس" .

وقد جمع القاسم اسماعيل بن احمد الشجري من شعراء القرن الرابع الهجري ضروب الادب في قوله :

ان شئت تعلم فـي الآداب منزلتـي وانـنـي قد عداني ، العز والنِّعم

فالطرف والسيف والاوهاق تشهد لي والعود والنرد والشطرنج والقلم

ونجد في اواسط القرن الرابع اخوان الصفا يطلقون لفظ الادب على الفنون والصناعات والعلوم غير الشرعية جميعها ، كاللغة والنحو والحساب والشعر والعروض والكيمياء وغيرها . واذا تقدمنا قليلاً في الزمن وجدنا مفهوم الادب يضيق مداوله حتى اصبح مقصوراً على علوم اللغة العربية التي حددتها المدرسة النظامية في بغداد بثمانية علوم : النحو ، واللغة ، والتصريف ، والعروض ، والقوافي ، وصنعة الشعر ، والمحاضرة ، والاشتقاق .

وفي القرن الثامن يتعرض ابن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ) في مقدمته لدراسة الادب فيعرف حده والعلوم التي يشتمل عليها واصول فنه واركانه . يقول ابن خلدون "ثم انهم اذا ارادوا حد هذا الفن قالوا : الادب هو حفظ اشعار العرب واخبارها والاخذ من كل علم بطرف .... وسمعنا في شيوخنا في مجالس التعليم ان اصول هذا الفن واركانه اربعة دواوين وهي : ادب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي".

واذا مضينا مع الزمن حتى نصل الى العصر الحديث وجدنا ان معنى الادب يتثمل في كونه " الذخر الانشائي الذي تجود به قرائح الافذاذ من علماء البيان ، ويعبرون به عن خلجات النفس وما يجيش به الوجدان وما تترنم به العاطفة ، وما

يسبح فيه الخيال وما توحي به مظاهر الكون واحوال المجتمع مما في تصويره غذاء للعقل وامتاع للنفس .

ان هذا الاختلاف في دلالة هذه اللفظة ومعانها في اللغة العربية يلحظ مثله في بعض اللغات الاوربية الحديثة على وجه ما ، فكلمة Literature عند الفرنسيين والانكليز والالمان يفهم منه الجيد من مأثور الكلام المنظور والمنثور ، وما يتصل به ويفسره من الشرح والنقد والتاريخ . أي كل ما يكتب باللغة سواء أكان ذلك علماً ، ام فلسفة ، ام ادباً . وفي هذا يقول "امرسن" "الادب سجل لخير الافكار" أي ان الادب يشمل كل كتاب يحمل افكاراً خيرة . وهذا يمثل المعنى العام للادب . اما المعنى الخاص فيشمل اثار الشعر والنثر ، وتلك الاثار التي تعبر عن عواطف الانسان واحاسيسه باسلوب جميل ومؤثر .